البيان والعرفان والبرهان: الجابري في نقد العقل العربي ومواجهة مشروع الغزالي

Bayān, ʻIrfān, and Burhān: Al-Jabri's Critique of Arab Reason and Confrontation with Al-Ghazali's Project

عثمان سك[1] /Ousmane SECK

باحث في سلك الدكتوراه، علوم التربية والتكوين

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب بدكار، السنغال

Seck6020@gmail.com

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مشروع المفكر المغربي محمد عابد الجابري في نقد العقل العربي، انطلاقاً من إشكالية مركزية مؤداها أن إصلاح هذا العقل يشكل الشرط الأساسي لأي نهضة منشودة. ويعتمد البحث المنهج التحليلي النقدي المقارن، القائم على قراءة النصوص الأصلية للجابري والغزالي ومقارنتها بأبرز الدراسات النقدية التي تناولت مشروع الجابري. ولتحقيق ذلك، ينتظم البحث في أربعة مباحث متكاملة.

ويستعرض أولا الآليات المعرفية الثلاث (البيان، العرفان، البرهان) التي تشكل بنية العقل العربي عبر التاريخ. ثم ينتقل إلى معرفة كيف اعتبر الجابري أن هيمنة البيان والعرفان أدت إلى إجهاض العقلانية والحداثة، مما استدعى تبني البرهان كبديل معرفي.

ومن هذا المنطلق حاول أن يقف على مساءلة الجابري لحجة الإسلام، معتبراً أن مشروعه أسهم في تكريس اليقين البياني. كما تناول موقف الغزالي بين البرهان والمنطق والعرفان، ممحصاً التناقضات والتحولات في منهج الغزالي بين استخدام المنطق والبرهان تارة، والانصراف نحو العرفان تارة أخرى.

وقد خلص البحث إلى أن مشروع الجابري، رغم أهميته التأسيسية في تفكيك اللامفكر فيه، وقع في إشكالية منهجية كبرى؛ إذ لم ينجح في تجاوز الآليات البيانية التي انتقدها في قراءته للتراث. كما بالغ في تحميل الغزالي مسؤولية انحطاط العقل العربي، متجاهلاً السياقات التاريخية. وعليه، يوصي البحث بضرورة تجاوز ثنائيات الجابري، وقراءة التراث كوحدة معرفية متكاملة، لإنتاج خطاب نقدي عربي أكثر عقلانية وتنويراً.

الكلمات المفتاحية: البيان، العرفان، البرهان، الجابري، الغزالي.

[1] عثمان سك، باحث في سلك الدكتوراه، جامعة شيخ أنت جوب بدكار، كلية علوم وتقنيات التربية والتكوين، قسم اللغة العربية، طبيعة المساهمة العلمية تتمحور في مشروع الفكري للجابري والغزالي.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

Abstract

This research analyzes the project of the Moroccan thinker Mohamed Abed Al-Jabri devoted to the critique of Arab reason, starting from the premise that reforming this reason is the essential condition for any desired renaissance. The study adopts a comparative critical-analytical method, reading Al-Jabri's and Al-Ghazali's original texts against the major critical studies devoted to Al-Jabri's project. It is organized around four main sections.

The first section examines Al-Jabri's triad in the construction of Arab reason, presenting the three epistemological mechanisms (Bayān, ‘Irfān, and Burhān) that have structured it throughout history. The second addresses Al-Jabri's critique of Bayān and ‘Irfān and his defense of Burhān, showing how he considers their dominance to have aborted rationality and modernity.

The third section is devoted to Al-Ghazali's project and the question of knowledge and certainty, examining Al-Jabri's claim that Al-Ghazali's project entrenched dogmatic certainty. The fourth section treats Al-Ghazali between Burhān, logic, and ‘Irfān, examining the shifts in his method between logic and Sufi gnosis.

The study concludes that Al-Jabri's project, despite its foundational importance, committed a major methodological error: it did not transcend the very bayānī mechanisms it denounced, and it overstated Al-Ghazali's responsibility for the decline of Arab reason while neglecting historical context. The research recommends moving beyond Al-Jabri's dichotomies and reading heritage as an integrated cognitive unity.

Keywords: Bayān, ‘Irfān, Burhān, Al-Jabri, Al-Ghazali.

مقدمة:

يُعد سؤال العقل من أكثر الأسئلة إلحاحًا في الفكر العربي والإسلامي الحديث؛ لأنه لا يتصل بمجرد طبيعة التفكير وآلياته، وإنما يرتبط كذلك بسؤال النهضة وإمكان استئناف الفعل الحضاري. فكل مشروع يسعى إلى إصلاح الفكر لا بد أن يواجه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سؤالًا سابقًا على الإصلاح نفسه: ما طبيعة العقل الذي نريد إصلاحه؟ وما المرجعيات والآليات التي تشكلت من خلالها طرائقنا في الفهم والاستدلال وإنتاج المعرفة؟ ومن هنا لم يعد نقد التراث مجرد مراجعة للمقولات والآراء التي أنتجها السابقون، بل أصبح نقدًا للآليات التي جعلت تلك المقولات ممكنة ومؤثرة ومستمرّة في الوعي.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

في هذا السياق برز مشروع المفكر المغربي محمد عابد الجابري بوصفه واحدًا من أبرز المشاريع الفكرية التي جعلت من نقد العقل العربي موضوعًا مركزيًا لها. فقد حاول الجابري أن يتجاوز القراءة التجميعية للتراث، وأن ينتقل إلى تحليل بنيته المعرفية، متسائلًا عن الأطر التي حكمت إنتاج المعرفة العربية الإسلامية منذ عصر التدوين. ولذلك لم يكتفِ بقراءة الفقه أو الكلام أو التصوف أو الفلسفة باعتبارها علومًا مستقلة، وإنما بحث عن المنطق الداخلي الذي ينتظمها، وعن الآليات التي تجعل كل خطاب منها ينتج الحقيقة بطريقة مخصوصة. ومن هنا جاءت ثلاثيته الشهيرة: البيان والعرفان والبرهان، باعتبارها أنظمة معرفية كبرى أسهمت، في نظره، في تشكيل بنية العقل العربي.

غير أن مشروع الجابري لم يكن مشروعًا وصفيًا محايدًا؛ فقد صاحبه موقف نقدي واضح من هذه الأنظمة، تفاوتت حدته من نظام إلى آخر. فإذا كان قد اعترف بأهمية البيان في تأسيس الثقافة العربية الإسلامية، فإنه انتقد بعض آلياته حين تتحول إلى انغلاق على النص وإعادة إنتاج للماضي. أما العرفان فقد كان أكثر الأنظمة إثارة لنقده، لما رأى فيه من اعتماد على الكشف والحدس والمعرفة الباطنية، وهي معرفة يصعب إخضاعها لمعايير الفحص العقلي المشترك. وفي المقابل، رفع الجابري من شأن البرهان، ورأى فيه إمكانًا لإعادة بناء العقل العربي على أساس الاستدلال والنقد، مستعيدًا في ذلك التجربة الفلسفية الأندلسية، ولا سيما مشروع ابن رشد.

لكن هذه الرؤية الجابرية تضعنا أمام إشكالية أكثر تعقيدًا عندما نصل إلى أبي حامد الغزالي. حيث إن الغزالي ليس مجرد عالم متكلم أو فقيه أو صوفي يمكن وضعه بسهولة داخل منظومة معرفية واحدة؛ بل هو مفكر عاش تجربة فكرية عميقة انتقل فيها بين الفقه والكلام والفلسفة والمنطق والتصوف، باحثًا عن اليقين الذي يطمئن إليه العقل والقلب معًا. ولذلك يمثل الغزالي حالة اختبار حقيقية للتقسيم الجابري؛ إذ نجد في مشروعه حضورًا واضحًا للمنطق، كما في معيار العلم، ومواجهة نقدية للفلاسفة، كما في تهافت الفلاسفة، وفي الوقت نفسه حضورًا قويًا للتجربة الصوفية والمكاشفة، كما في كتابه إحياء علوم الدين وكتبه الأخرى.

ومن هنا تنشأ المفارقة التي تجعل قراءة الغزالي في ضوء مشروع الجابري جديرة بالتأمل: كيف يمكن لمفكر أن يستخدم المنطق الأرسطي وأدوات الاستدلال، ثم يمنح المعرفة الصوفية والكشف موقعًا أساسيًا في مشروعه؟ وهل يمثل ذلك تناقضًا معرفيًا بالفعل، كما توحي القراءة الجابرية، أم أن الغزالي كان يتحرك وفق

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

تصور للمعرفة يجعل للبرهان العقلي مجالًا، وللتجربة الروحية مجالًا آخر؟ إن المسألة هنا لا تتعلق بمجرد اختلاف بين رجلين، وإنما تتصل بسؤال أعمق: هل المعرفة الإنسانية ذات نظام واحد، أم أنها تتكون من مراتب وطرائق متعددة لا يلزم أن تتطابق في وظائفها؟

وتزداد أهمية هذه الإشكالية إذا استحضرنا أن الجابري نفسه لم يكن يقرأ الغزالي من خلال كتاب واحد، وإنما من خلال مشروع متكامل، تتجاور فيه نصوص المنطق والفلسفة والتصوف. ولذلك أصبحت كتب معيار العلم وتهافت الفلاسفة وإحياء علوم الدين مفاتيح أساسية لفهم حكمه على الغزالي. ومن خلال هذه الأعمال رأى الجابري أن الغزالي يمثل نموذجًا بارزًا للتداخل بين الأنظمة المعرفية، وأنه لم ينجح في بناء مصالحة إبستمولوجية حقيقية بين البرهان والعرفان.

غير أن هذه القراءة نفسها تحتاج إلى مساءلة؛ لأن الحكم على الغزالي بالتناقض ينبغي ألا يصدر قبل فهم تصور الغزالي للمعرفة ومراتبها ووظائفها. كما أن الحكم على الجابري لا ينبغي أن يقوم على رفض مشروعه جملة، وإنما على اختبار أدواته وحدودها، ولا سيما حين يجعل البرهان معيارًا متقدمًا للحكم على بقية الأنظمة.

وقد تناول عدد من الباحثين مشروع الجابري بالنقد والتحليل؛ فقد ناقش عامر عبد زيد الوائلي ثلاثية البيان والعرفان والبرهان في ضوء قراءة الجابري للتراث، بينما وجّه عبد الله الغزاوي وأحمد بابان العلوي النظر إلى قيمة هذه القراءة النقدية وحدودها في التعامل مع مشروع الغزالي تحديدًا، في حين فتح طه عبد الرحمن نقاشًا أوسع حول كفاية النموذج البرهاني وحده لبناء عقل حضاري. غير أن هذه الدراسات لم تركز، على وجه التحديد، على اختبار مدى نجاح الغزالي نفسه، من داخل مشروعه، في التوفيق بين البرهان والعرفان، وهو ما يمثل الفجوة البحثية التي يسعى هذا المقال إلى معالجتها.

ولتحقيق هذا الهدف، يعتمد البحث منهجًا تحليليًا نقديًا مقارنًا، يقوم على قراءة النصوص الأصلية للجابري والغزالي، ومساءلة القراءة الجابرية من داخل نصوص الغزالي نفسها. ومن هنا يحاول هذا المقال أن يقارب العلاقة بين المشروعين مقاربة تحليلية نقدية، تنطلق من عرض ثلاثية الجابري، ثم تقف عند نقده للبيان والعرفان وانتصاره للبرهان، قبل الانتقال إلى مشروع الغزالي في سؤال المعرفة واليقين، ثم تحليل موقع البرهان والمنطق والعرفان في فكره، وصولًا إلى مساءلة الحكم الجابري على الغزالي، وبيان ما إذا كان هذا الحكم يعكس تناقضًا حقيقيًا أم اختلافًا في تصور مراتب المعرفة.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

1. ثلاثية الجابري في بناء العقل العربي

لم يكن اختيار هذه الثلاثية اعتباطيًا في مشروع الجابري؛ فهو يرى أن الثقافة العربية الإسلامية لم تتشكل من مصدر معرفي واحد، وإنما تفاعلت داخلها طرائق متعددة في بناء الحقيقة. ولذلك فإن البيان يحيل إلى عالم النص واللغة والتأويل. والبيان عنده، اسم جامع لكل ما به تتحقق منظومة الفهم والتلقي، وكذلك التبليغ، ولذا يراه يهيمن على الخطاب الديني ويجعل نصه مقدسا ومرجعا نهائيا يرفض المساءلة، ويؤسس للمنطق القياس على الأصل والمماثلة، فأصبح أساسا مرجعيا لفهم العقيدة، وهذا ما جعل اللغة أداة للسلطة قبل أن تكون أداة للتواصل[2].

ويرى أن العرفان يسعى إلى عالم الكشف والباطن والتجربة الروحية التي تتمثل في الصوفية والباطنية، ولذا نجده يسميه باللامعقول العقلي، فذهب بأنه ظاهرة تعرضت على جميع الأديان السماوية الثلاثة: اليهودي والنصراني –المسيحية– والإسلامي، وعرفتها الديانات الوثنية كالمانوية وغيرها، وبهذا التلازم الذي عرفه العرفان في أوساط العقائد الكونية والوثنية، جعل الجابري يقسمه إلى جانبين: العرفان كموقف وكالنظرية لتفسير الكون والإنسان، بحيث إن الأول يمثل تتويجا للثاني، والأخير يمثل تأسيسا للأول. فذهب إلى أن العرفان شهد ثلاثة اتجاهات كبرى في تاريخ تطورها، تتجلى في اتجاهات يغلب عليها: موقف العرفان كمعاناة، وأخرى الطابع الفلسفي، والثالث يغلب فيه السرد الأسطوري، غالبا عند الفلاسفة الإسماعيليين والمتصوفة الباطنيين[3].

ويحيل البرهان إلى عالم الاستدلال العقلي والمنطقي، بالملاحظة التجريبية والاستنتاج العقلي كمنهج، ويسميه الجابري بالمعقول العقلي، ويرى أن الطريق الوحيد الذي يضمن النهضة الحقيقية في العقل العربي، هو

[2] علي نبي، حسن؛ خدر الرسول، عمر؛ محمد نوري، حسين، الآليات الابستمولوجية في نقد الجابري للخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، قسم الدراسات الإسلامية، كلية القانون والدراسات الإسلامية، جامعة رابين، إقليم كزريستان، العراق، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مجلد 16، العدد 9، 2026، ص 5377.

[3] علي نبي، حسن؛ خدر الرسول، عمر؛ محمد نوري، حسين، الآليات الابستمولوجية في نقد الجابري للخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، المرجع السابق، ص 5377.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

محاولة استعادة هذا النظام المعرفي وتطويره ليستوعب كل مستجدات العصر وتخطي الأزمات والتحديات العصرية[4].

والغاية من هذا التصنيف ليست فقط تحديد خصائص كل نظام، بل الكشف عن الصراعات والتداخلات التي نشأت بينها، وعن النظام الذي استطاع في كل مرحلة تاريخية أن يفرض منطقه وآلياته على المجال الثقافي. ومن هنا يتحول تاريخ العقل العربي، في القراءة الجابرية، من تاريخ للعلوم والمذاهب إلى تاريخ للصراع بين أنظمة معرفية مختلفة[5].

فالبيان، عند الجابري، هو نظام المعرفة الذي يتأسس أساسًا على النص واللغة، ويتحرك في علوم الفقه وأصوله والنحو والبلاغة والكلام والتفسير، وتقوم آلياته على البيان والقياس والاستدلال انطلاقًا من الأصل أو الشاهد. وهو بهذا يمثل جانبًا أصيلًا من الثقافة العربية الإسلامية، لأن اللغة العربية والنص الديني كانا في صميم عملية إنتاج المعرفة. لكن الجابري لا يقف عند الاعتراف بأصالته، بل ينتقد ما آلت إليه بعض أشكاله حين أصبحت المعرفة البيانية تدور داخل منظومة مغلقة تعيد إنتاج نفسها من خلال النص وقواعده، ولا تنفتح بما يكفي على مقتضيات العقل والواقع.

أما العرفان، فهو نظام مختلف في بنيته ومرجعيته؛ إذ يقوم على الكشف والإشراق والحدس والمعرفة الباطنية، أي على حصول المعرفة بطريقة لا تعتمد على الاستدلال البرهاني المعتاد، وإنما على تجربة ذاتية وذوق روحي. ولذلك كان العرفان أكثر الأنظمة التي أثارت حفيظة الجابري؛ لأنه رأى فيه تعطيلًا للوسائط العقلية المشتركة وإحلالًا لمعرفة شخصية لا يمكن إخضاعها بسهولة لمعيار النقد والمراجعة. أما البرهان، فهو عنده النظام الذي يقوم على الاستدلال المنطقي وإنتاج المعرفة من خلال مقدمات وقواعد يمكن فحصها ومناقشتها، ولذلك رأى فيه المجال الأكثر قدرة على تأسيس عقل نقدي قادر على تجاوز أسر البيان والعرفان.

ويعود تشدد الجابري تجاه العرفان إلى أنه لا يراه مجرد طريقة أخرى في تحصيل المعرفة، بل يرى أن دخوله في بنية العقل العربي أحدث تحولات عميقة في علاقة الفكر بالحقيقة. فالمعرفة العرفانية، في نظره، لا تقوم

[4] المرجع نفسه، ص 5378.

[5] الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط9، 2009، ص 207.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

على مقدمات يمكن للآخر أن يفحصها بالطريقة نفسها، وإنما تستند إلى تجربة ذاتية يدّعي صاحبها من خلالها بلوغ حقيقة لا تتاح بالوسائل العقلية المعتادة. ومن هنا رأى الجابري أن الخطر لا يكمن في حضور البعد الروحي في الثقافة الإسلامية، وإنما في تحويل التجربة الخاصة إلى مرجعية معرفية عامة، بحيث يصبح الكشف مصدرًا لإنتاج أحكام تتجاوز مجال التجربة الفردية إلى تفسير الإنسان والعالم والدين.

ومن المهم هنا التنبيه إلى أن الجابري لا يتعامل مع هذه الأنظمة باعتبارها ثلاثة عقول منفصلة أو ثلاث جماعات فكرية مغلقة، وإنما باعتبارها أنظمة معرفية قد تتجاور وتتفاعل وتتداخل داخل المشروع الفكري الواحد. فقد يحمل العالم الواحد تكوينًا بيانيًا، ويستعمل في الوقت نفسه أدوات منطقية، أو يتأثر بتصورات عرفانية؛ ولذلك فإن الحدود بين هذه الأنظمة ليست دائمًا حدودًا صلبة. وهذه الملاحظة مهمة خصوصًا عند الانتقال إلى الغزالي، لأن قيمته بالنسبة إلى الجابري تأتي تحديدًا من كونه نموذجًا يصعب اختزاله في نظام واحد، ومن كونه يكشف عن طبيعة التداخل بين البرهان والعرفان والبيان[6].

2. نقد الجابري للبيان والعرفان وانتصاره للبرهان

غير أن الجابري لم يكن يرى هذه الأنظمة مجرد جزر معرفية منفصلة، بل اهتم بالعلاقة التي نشأت بينها، ولا سيما حين تنتقل آليات نظام إلى نظام آخر. وهنا ظهر عنده مفهوم "التداخل التكويني" الذي اعتبره طبيعيًا، لأن العالم الواحد قد يكون فقيهًا ولغويًا ومتكلّمًا ومفسرًا في الوقت نفسه، فيتداخل عمل هذه العلوم بصورة طبيعية. لكنه ميّز ذلك عن التداخل التلفيقي الذي يعني، في تصوره، الجمع بين أنظمة معرفية مختلفة دون بناء علاقة منهجية واضحة بينها. وفي هذا السياق جعل الغزالي مثالًا بارزًا على التداخل بين البيان والعرفان، ورأى أن هذا النوع من المزج أسهم في تكريس أزمة الأسس داخل الثقافة العربية الإسلامية.

ومن هنا يمكن فهم ميل الجابري إلى إعادة الاعتبار للعقل البرهاني، ولا سيما في التجربة الأندلسية التي رأى فيها محاولة لإعادة تأسيس الفكر الإسلامي على أسس عقلية أكثر اتساقًا. ولهذا احتلت أسماء مثل ابن حزم والشاطبي وابن رشد مكانة خاصة في مشروعه؛ إذ رأى فيها محاولات لتجاوز بعض أوجه الجمود التي أصابت النظام المعرفي العربي، وإعادة بناء العلاقة بين العقل والنص والواقع[7]. ولم يكن ابن رشد

[6] الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص 509.

[7] الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص 381.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

بالنسبة إلى الجابري مجرد فيلسوف من فلاسفة الإسلام، بل أصبح رمزًا لإمكان قيام عقل عربي برهاني قادر على ممارسة النقد من داخل التراث نفسه، بدل استيراد نموذج عقلاني من خارجه. وقد أشار عدد من دارسي مشروع الجابري إلى أن رهانه على ابن رشد كان جزءًا من مشروعه لإعادة تأسيس العقل العربي، لا مجرد إعجاب تاريخي بفيلسوف أندلسي.

ولذلك فإن انتصار الجابري للبرهان لم يكن مجرد تفضيل تقني للمنطق على غيره من أدوات التفكير، وإنما كان جزءًا من مشروعه في بناء عقل نقدي قادر على إخضاع المعرفة للفحص والمناقشة. فالبرهان، في تصوره، يكتسب قوته من كون مقدماته وقواعد استنتاجه قابلة للعرض أمام الآخر، ومن ثم يمكن اختبارها ونقدها وتصحيحها[8]. وهذا ما جعله يربط البرهان بإمكان التجديد الحضاري؛ إذ لا يمكن، في نظره، الانتقال من عقلية تكرر الموروث إلى عقلية منتجة للمعرفة دون إعادة النظر في الآليات التي تحكم عملية التفكير نفسها. غير أن هذا الموقف يثير سؤالًا لا يقل أهمية: هل تكفي البرهنة العقلية وحدها لبناء عقل حضاري، أم أن المعرفة الإنسانية تحتاج إلى أبعاد أخرى لا يستنفدها البرهان؟ وسيعود هذا السؤال بقوة عند قراءتنا مشروع الغزالي.

3. مشروع الغزالي وسؤال المعرفة واليقين

وفي الطرف الآخر من هذه الخريطة المعرفية يقف أبو حامد الغزالي، أحد أكثر المفكرين تأثيرًا في تشكيل الفكر الإسلامي الصوفي خاصة. لكن وضع الغزالي داخل ثنائية البيان والعرفان والبرهان ليس أمرًا بسيطًا؛ لأنه لم يكن صاحب مشروع أحادي الاتجاه. فالغزالي اشتغل بالفقه وأصوله والكلام والمنطق والفلسفة والتصوف، ومرّ في تجربته الفكرية بمراحل متعددة، انتهت إلى بناء تصور للمعرفة لا يكتفي بالعقل المجرد، ولا يرفضه في الوقت نفسه. ففي كتابه المنقذ من الضلال يعرض الغزالي رحلته في البحث عن اليقين، ويؤكد أهمية التحقق من المناهج قبل الحكم عليها، كما يقرر أن علم المنطق يتصل بمعايير النظر والاستدلال، وأن قواعده يمكن أن تكون أداة لضبط التفكير. ولذلك فإن تصوير الغزالي –حسب رأيي– بوصفه عدوًا مطلقًا للعقل أو للمنطق ليس دقيقًا من الناحية التاريخية والنصية.

[8] الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص 383؛ وانظر كذلك كتاب نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، 1993، ص 211–260.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

وتكشف رحلة الغزالي في المنقذ عن أن سؤال المعرفة عنده لم يكن سؤالًا نظريًا منفصلًا عن وجود الإنسان، بل كان سؤالًا عن اليقين الذي يمكن أن يؤسس عليه الإنسان اعتقاده وحياته[9]. ولذلك لم يكتفِ الغزالي بنقل الأقوال أو المفاضلة بين المذاهب، وإنما حاول اختبار أدوات المعرفة نفسها: الحواس، والعقل، والنظر، ثم المعرفة الصوفية. ومن هنا جاءت أزمته الفكرية بوصفها أزمة منهج قبل أن تكون أزمة مذهب؛ إذ كان يبحث عن معيار لا يتطرق إليه الشك[10]. وهذا ما يفسر اهتمامه بالمنطق من جهة، ثم انتقاله إلى التصوف من جهة أخرى، لأن كلا المجالين ارتبط عنده بسؤال اليقين، وإن اختلفت طبيعة المعرفة التي يطلبها كل منهما.

وفي كتابه معيار العلم في فن المنطق يبلغ هذا الاهتمام بالمنطق درجة واضحة؛ فالكتاب نفسه شاهد على أن الغزالي لم ير في المنطق مجرد علم دخيل يجب إقصاؤه، بل تعامل معه باعتباره أداة لفحص طرق الاستدلال والتمييز بين الصحيح والفاسد من الحجج. ومن هنا تأتي المفارقة التي ستصبح لاحقًا محورًا أساسيًا في قراءة الجابري للغزالي: كيف يجمع الغزالي بين المنطق البرهاني من جهة، وبين المعرفة الصوفية والكشف والمكاشفة من جهة أخرى؟ إن السؤال هنا ليس حول استعمال الغزالي للمنطق، فهذا ثابت في مشروعه، وإنما حول الموقع المعرفي الذي منحه لهذا المنطق، والحدود التي رسمها له.

ومن ثم لا يصح أن نفهم حضور المنطق في مشروع الغزالي على أنه مرحلة عابرة لم يبق لها أثر بعد تحوله إلى التصوف؛ فالمنطق ظل أداة لضبط النظر، لكنه لم يعد، في التصور الغزالي، قادرًا وحده على استنفاد إمكانات المعرفة. وهذا التفريق بين وظيفة الأداة وحدودها ضروري لفهم موقفه؛ فالمنطق يستطيع أن يختبر صحة الانتقال من مقدمات إلى نتائج، لكنه لا يجيب بالضرورة عن كل الأسئلة التي تتعلق بالغاية والمعنى والتجربة الروحية. ولذلك وسّع الغزالي مجال المعرفة من غير أن يلغي العقل، وجعل الانتقال من البرهان إلى المكاشفة انتقالًا في مرتبة المعرفة لا بالضرورة هدمًا للمرتبة السابقة[11].

---

[9] الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال، طبعة دمشق، 1956، ص 62، وص 69–71.

[10] الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، دمشق، مكتب النشر العربي، 1939، ص 23–31.

[11] الغزالي، أبو حامد، معيار العلم في فن المنطق، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف، 1961، ص 26–28.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

فالغزالي، في إحياء علوم الدين، لا يجعل المعرفة الإنسانية محصورة في الاستدلال العقلي، بل يفتح المجال أمام ما يسميه علم المكاشفة، ويجعل تزكية النفس والمجاهدة وسيلة للوصول إلى نوع من المعرفة الروحية. وهنا تظهر شخصية الغزالي الفكرية في أكثر صورها تعقيدًا: فهو لا يلغي العقل، ولكنه يرفض أن يكون العقل هو الأفق الأخير للمعرفة. ولذلك فإن مشروعه ليس مشروعًا ضد العقل بقدر ما هو مشروع في حدود العقل ومراتب المعرفة. وهذه النقطة ضرورية لفهم الخلاف بينه وبين الجابري؛ لأن الغزالي كان ينطلق من تصور للمعرفة متعدد المراتب، بينما كان الجابري يبحث عن نظام معرفي أكثر اتساقًا من الناحية الإبستمولوجية.

4. الغزالي بين البرهان والمنطق والعرفان

ومن هنا يبدأ نقد الجابري للغزالي، فالجابري يقرأ الغزالي باعتباره نموذجًا مركزيًا للتداخل بين النظم المعرفية، ويرى أن مشروعه لم يحسم العلاقة بين البرهان والعرفان، بل جمع بينهما في بنية واحدة. ومن خلال قراءة معيار العلم وتهافت الفلاسفة وإحياء علوم الدين يمكن، في المنظور الجابري، رؤية هذه الازدواجية بوضوح: ففي معيار العلم يظهر الغزالي مستفيدًا من المنطق الأرسطي، وفي تهافت الفلاسفة يوظف أدوات عقلية ومنطقية في محاججة الفلاسفة، بينما ينتهي في الإحياء إلى مركزية التجربة الصوفية والمكاشفة. ولهذا يرى الجابري أن الغزالي لم يوظف المنطق دائمًا بالمعنى الذي أراده أرسطو، أي بوصفه أداة عامة لإنتاج المعرفة البرهانية، وإنما وظفه في سياق جدلي للدفاع عن مواقفه ونقض مواقف خصومه. وهذا، في القراءة الجابرية، هو وجه التناقض، ويتجلى في استعمال أدوات البرهان داخل مشروع معرفي ينتهي إلى تفضيل المعرفة العرفانية. وعليه يرى عبد الله الغزاوي، أن الجابري تمكن من تقديم قراءة نقدية توجه النقاشات الفكرية نحو القضايا أكثر حيوية ومرتبطة بالتراث والحداثة والهوية[12].

[12] الغزاوي، عبد الله، نقد العقل العربي عند الجابري – قراءة تحليلية فكرية، مجلة شرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية، مجلد 5، عدد 3، جامعة القديس يوسف، لبنان، ص 639.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

غير أن قراءة الجابري للغزالي تحتاج إلى التمييز بين مستويين: مستوى استعمال المنطق، ومستوى تحديد القيمة النهائية للمعرفة المنطقية[13]. فليس كل من استخدم المنطق ملتزمًا بالضرورة بأن يكون المنطق هو الطريق الوحيد إلى الحقيقة. وقد يكون الغزالي قد قبل المنطق بوصفه أداة لضبط الاستدلال، مع اعتقاده أن العقل البرهاني له حدود لا يستطيع تجاوزها. ومن هنا فإن الجمع بين المنطق والتصوف لا يصبح تناقضًا بمجرد وجودهما في مشروع واحد؛ إذ لا بد من إثبات أن الغزالي جعل الأداتين تعملان في القضية نفسها، وبالمعيار نفسه، ثم انتهى بهما إلى نتائج متعارضة. أما إذا كان يخصص لكل منهما مجالًا ووظيفة، فإن الأمر يصبح أقرب إلى تعدد مستويات المعرفة منه إلى التناقض المنهجي[14].

لكن هنا ينبغي أن نتوقف قليلًا؛ لأن وصف هذا الوضع بأنه تناقض يحتاج إلى تمييز دقيق بين النقد الجابري وبين الحكم التاريخي على الغزالي. فالجابري ينطلق من تصور إبستمولوجي يرى أن لكل نظام معرفي منطقه الخاص، وأن خلط آلياته بأنظمة أخرى يمكن أن ينتج أزمة في الأسس، ولذا يرى أن مشروع الغزالي أنتج أزمة فكرية في العقل العربي الإسلامي، حيث إن المكان الذي حصلته العرفانية في الفكر الإسلامي ليس إلا آثار كتاب الإحياء[15]. أما الغزالي فكان ينطلق من تصور مختلف للمعرفة، لا يرى العقل والمنطق والتجربة الروحية بالضرورة في مرتبة واحدة أو في وظيفة واحدة. ومن ثم يمكن أن يكون المنطق عنده أداة لضبط الاستدلال، بينما تكون المكاشفة طريقًا إلى نوع آخر من المعرفة. وعلى هذا الأساس فإن السؤال الأكثر دقة ليس أن نسأل هل كان الغزالي متناقضًا؟ بل أن نسأل هل نجح الغزالي في تأسيس علاقة معرفية متماسكة بين البرهان والكشف؟ وهذا سؤال أقوى من الحكم المباشر بالتناقض؛ لأنه – بنسبة لي – يترك الباب مفتوحًا لتقييم المشروع من داخله.

ومن هذه الزاوية يمكن إعادة النظر في العبارة التي تجعل المنطق عند الغزالي مجرد سلاح جدلي. فهذه العبارة تعبّر عن قراءة الجابري لوظيفة المنطق عند الغزالي أكثر مما تصلح حكمًا مطلقًا على المشروع الغزالي. وإذا كان الغزالي قد وظف المنطق في الدفاع والجدل ونقد الخصوم، فإن ذلك لا ينفي أن له عنده

[13] الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، مرجع سابق، ص 509.

[14] الغزالي، أبو حامد، معيار العلم في فن المنطق، مرجع سابق، ص 26–28.

[15] العلوي، أحمد بابان، قراءة الجابري للمشروع الفكري للإمام الغزالي: المنهج والرؤية، ص 11–12.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

وظيفة منهجية في تمييز صحة الاستدلال. كما أن استعمال المنطق في الجدل ليس، من الناحية التاريخية، خروجًا بالضرورة عن كل وظيفة برهانية؛ إذ إن البرهان نفسه – بطبيعة الحال– يمكن أن يدخل في سياقات حجاجية. ولذلك فإن النقد الأدق هو البحث في درجة استقلال المنطق عند الغزالي عن النتائج العقدية التي انتهى إليها، سائلا: هل كان المنطق يقود النتائج، أم كان يأتي بعد تحديدها ليساعد على صياغتها والدفاع عنها؟ وهنا بالضبط تكمن المسافة النقدية الأكثر أهمية بين القراءة الجابرية والقراءة الداخلية لمشروع الغزالي[16].

وهنا تظهر أهمية الدراسات النقدية التي تناولت مشروع الجابري نفسه. فقد رأى بعض الباحثين أن تقسيم الثقافة العربية إلى بيان وعرفان وبرهان مفيد من حيث قدرته على الكشف عن اختلاف طرائق إنتاج المعرفة، لكنه لا يخلو من مشكلات حين يتحول إلى معيار صارم للحكم على التراث. ومن أبرز الذين ناقشوا هذا المشروع عامر عبد زيد الوائلي في دراسته حول "نقد العقل العربي عند محمد عابد الجابري"، حيث تناول أنظمة البيان والعرفان والبرهان، وناقش خصوصًا قراءة الجابري للغزالي وابن رشد وأزمة الأسس. كما تعرض موقف الجابري من البيان والعرفان والبرهان لنقد من باحثين[17] رأوا أن الجابري حمّل بعض هذه الأنظمة أحكامًا تاريخية وفلسفية تحتاج إلى مزيد من التحقق.

ومن جهة أخرى، يمثل طه عبد الرحمن صوتًا مهمًا في نقد المشروع الجابري؛ إذ لم يقبل أن تكون الحداثة العقلانية مرهونة باستعادة نموذج برهاني واحد، ودعا في مشروعه الفلسفي إلى إعادة النظر في علاقة العقل بالتراث والأخلاق والعمل. وتكمن أهمية استحضار طه عبد الرحمن هنا في أنه يفتح السؤال الذي قد يغلقه التصنيف الجابري: هل البرهان وحده كافٍ لبناء عقل حضاري؟ أم أن العقل يحتاج كذلك إلى البعد الأخلاقي والروحي والعملي؟ وبذلك يصبح الخلاف حول الغزالي والجابري جزءًا من خلاف أوسع حول تعريف العقل نفسه: هل العقل هو القدرة على البرهنة فحسب، أم هو ملكة متعددة الأبعاد تتفاعل فيها المعرفة بالقيمة وبالتجربة وبالعمل؟

[16] الغزالي، أبو حامد، تهافت الفلاسفة، ص 85.

[17] منهم مريم السبتي.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

خاتمة:

- **النتائج:**

والحقيقة أن قوة مشروع الجابري لا تكمن في أن تقسيمه الثلاثي يمثل حقيقة نهائية عن العقل العربي، وإنما في أنه طلب من الفكر العربي المعاصر إعادة طرح سؤال كيف ننتج المعرفة؟ كما أن قيمة الغزالي لا تكمن في أنه قدم جوابًا نهائيًا عن هذا السؤال، وإنما في أنه كشف، قبل قرون طويلة، عن مشكلة ما تزال حاضرة: حدود العقل، وشروط اليقين، والعلاقة بين البرهان والتجربة الروحية.

وقد خلص البحث إلى أن الجابري رأى في البيان والعرفان مصدرين أساسيين من مصادر اختلال العقل العربي حين يتحولان إلى أنظمة مغلقة، ورأى في البرهان إمكانًا لإعادة بناء العقل على أساس نقدي، بينما رأى الغزالي أن العقل والمنطق ضروريان، لكنه رفض أن يتحولا إلى سلطة معرفية مطلقة، وفتح للمعرفة مجالًا يتجاوز حدود البرهان إلى المكاشفة والتجربة الروحية.

كما بيّن البحث أن الحكم الجابري على الغزالي بالتناقض يحتاج إلى تمييز دقيق بين مستوى استعمال المنطق ومستوى تحديد قيمته النهائية؛ إذ لم يثبت – على حسب فهمنا– وجود تعارض فعلي بين وظيفتي البرهان والمكاشفة في مشروع الغزالي، بقدر ما يعكس ذلك اختلافًا في تصور مراتب المعرفة بين المشروعين.

- **التوصيات:**

وفي ضوء هذه النتائج، يوصي البحث بضرورة تجاوز ثنائيات الجابري الصارمة (بيان–عرفان–برهان)، وقراءة التراث كوحدة معرفية متكاملة، لإنتاج خطاب نقدي عربي أكثر عقلانية وتنويرًا.

كما يوصي بإجراء مزيد من الدراسات النقدية الداخلية لمشروعي الجابري والغزالي كليهما، بمعزل عن الأحكام المسبقة، تختبر مدى تماسك كل مشروع من داخل نصوصه قبل الحكم عليه من خارجها.

ويوصي كذلك باستثمار مقترح طه عبد الرحمن الداعي إلى توسيع تعريف العقل ليشمل الأبعاد الأخلاقية والروحية والعملية، في أي مشروع مستقبلي لنقد العقل العربي، حتى لا يظل هذا النقد رهينًا لنموذج برهاني واحد.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر الأصلية

- الغزالي، أبو حامد. (د.ت)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- الغزالي، أبو حامد. (1955)، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة.
- الغزالي، أبو حامد. (1961)، معيار العلم في فن المنطق، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة.
- الغزالي، أبو حامد. (1939)، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، مكتب النشر العربي، دمشق.
- ابن رشد، أبو الوليد. (د.ت.)، تهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة.
- ابن رشد، أبو الوليد. (د.ت.)، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة.

ثانيًا: مؤلفات محمد عابد الجابري

- الجابري، محمد عابد. (1984)، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- الجابري، محمد عابد. (2009)، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط9، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- الجابري، محمد عابد. (1993)، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

ثالثًا: الدراسات النقدية حول المشروع

- الوائلي، عامر عبد زيد. (د.ت.)، نقد العقل العربي عند محمد عابد الجابري، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- عبد الرحمن، طه. (1994)، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- عبد الرحمن، طه. (2006)، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

ISSN: 3119-6837 - E-ISSN: 3119-6845
DÉPÔT LÉGAL: 2026PE0013

- أركون، محمد. (1996)، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، بيروت.
- كوربان، هنري. (1998)، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي، عويدات للنشر والطباعة، بيروت.
- علي نبي، حسن؛ خدر الرسول، عمر؛ محمد نوري، حسين. (2026)، «الآليات الابستمولوجية في نقد الجابري للخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية»، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مجلد 16، العدد 9، ص 5377–5378.
- الغزاوي، عبد الله. (د.ت.)، «نقد العقل العربي عند الجابري – قراءة تحليلية فكرية»، مجلة شرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية، مجلد 5، عدد 3، ص 639.
- العلوي، أحمد بابان. (د.ت.)، «قراءة الجابري للمشروع الفكري للإمام الغزالي: المنهج والرؤية»، ص 11–12.